الأفكار والنماذج اليهودية في " الشتات ":
هل هي جديدة أم أنها معروفة؟

د. عادل الأسطة

الآن، وقد انتهى عرض الجزء الأول من مسلسل الشتات الذي أخرجه نذير عواد وعرضته فضائية المنار اللبنانية طيلة شهر رمضان وأيام عيد الفطر على تسع وعشرين حلقة، الآن يستطيع المرء أن ينظر في بعض الأفكار والنماذج اليهودية التي أظهرها المسلسل ليرى المرء إن كانت تعرض أو تقدم لأول مرة، وليتساءل، من ثم، إن كان هناك ثمة مبرر للاحتجاج الإسرائيلي الأمريكي، وإن كان هناك مبرر فهل يعود إلى جدة الأفكار والنماذج اليهودية فيه أم أنه – أي المبرر – يعود إلى تقديم هذه الأفكار والنماذج من خلال شاشة التلفاز، ومن ثم، رؤية المسلسل من ملايين العرب في العالم، وهذا بدوره قد يؤجج نار الكراهية والحقد، وإن كانت نار الكراهية والحقد تؤجج من خلال الدم الفلسطيني واليهودي الذي ينزف منذ سنوات طويلة أخطرها السنوات الثلاث المنصرمة، حيث العنف والعنف المضاد يفوق عشرات المرات ما بدا في " الشتات "، بل وتؤجج من خلال الواقع المعيشي البائس للفلسطينيين هنا في الضفة والقطاع، وهناك في المنافي حيث مخيمات البؤس والشقاء التي يعاني سكانها من الفقر والبعد عن الوطن والشعور بالغربة، عدا عما عانوه في فترات سابقة تعرضوا فيها لسفك دم ربما يفوق ما تعرض له سكان فلسطين، عرباً ويهوداً، في السنوات الثلاث المنصرمة.

ابتداء يخيل إلي أن الذي أنجز المسلسل فكرةً، أراد أن أن يفرق بين اليهود والصهيونية، وأراد أن يقول أيضاً ليس العرب وحدهم ضحايا الصيهونية، بل وليس بعض الإنجليز أيضاً كانوا ضحايا الصهيونية. اليهود الذين رفضوا الفكرة الصهيونية كانوا أيضاً ضحاياها، ولقد دفعوا ثمناً باهظاً، حيث تحولت حياتهم إلى جحيم لا يطاق، لدرجة أن بعض هؤلاء رأى، مع اقتراب تجربته من نهايتها، أن الحياة في برلين تحت الحكم الهتلري قد تكون أرحم من حياته التي عاشها في المنفى قريباً من الحركة الصهيونية، ومن حياته التي عاشها في فلسطين بعد الهجرة إليها مكرهاً ومجبراً.

ويخيل إليّ أيضاً أن الذي أنجز المسلسل، فكرةً، أراد أن يقول أيضاً إن كثيراً من تعاليم التلمود حُرفت لتخدم مصالح رجال الدين اليهود، وهذا ما نطق به أيضاً، في نهاية المسلسل، أحد اليهود الذي كانت تجربته مع الحركة الصهونية وبعض الحاخامات قاسية ومرعبة لدرجة لا تتصور.

بل ويخيل إلي أيضاً أن الذي أنجز المسلسل، فكرةً، أراد أن يقول أيضاً إن اليهود المتعصبين هم وراء مشاكل كثيرة من مشاكل البشرية، وأن هؤلاء لا ينتمون للدول التي عاشوا فيها وتعلموا لغتها وحملوا هويتها، إنما ينتمون أساساً إلى ديانتهم اليهودية وإلى شعبهم اليهودي أولاً وقبل كل شـــيء، وهذا ما بدا في الحلقة الأخيرة، في الحلقة التاسعة والعشرين، على لســـان (ألبرت اينشتاين).

كل هذا يخيل إليّ، ولا أريد أن أُؤيدَهُ أو أدحضَهُ لأن تأييد هذا أو دحضه يحتاج إلى مساءلة المصادر والمراجع التي اعتمد عليها كاتب المسلسل من ناحية، ومساءلة الواقع من ناحية ثانية، وإن كان ليس كل ما يكتب ينفّذ، وإن كان أيضاً ليس كل ما ينفّذ يكتب. تماماً كما أن هناك مفارقات يلحظها المرء من خلال الإصغاء إلى الروايات في مراحل مختلفة، ومن جهات مختلفة أيضاً، من ذلك مثلاً اختلاف الروايات حول ما قام به هتلر في ألمانيا، ففي الـــوقت الذي قتل منهم – أي من اليهود – الملايين، طلعت علينا، في فترات متأخرة، روايات تقول إن ذلك كان بتنسيق مع زعماء يهود صهيونيين، حتى يعجل بترحيل اليهود من ألمانيا إلى فلسطين، وهذه فكرة أيضاً أراد مسلسل " الشتات " أن يبرزها. تماماً كما أراد الترويج لفكرة أن العصابات الصهيونية كانت تقتل أحياناً اليهود لتمنعهم من الهجرة المضادة، أو لتجبرهم على الهجرة إلى فلسطين. وإذا ما كانوا يهوداً يعلنون ولاءهم لدولتهم التي يحملون جنسيتها، مثل أمريكا، فإنما تفعل ذلك لتلصق تهمة القتل بالعرب، حتى تفسد العلاقة بين العرب والدول الأخرى.

وأظن أن تتبع الأفكار والنماذج اليهودية في " الشتات " للإجابة عن السؤال: هل هي أفكار جديدة أم معروفة؟ يحتاج إلى وقت طويل، وإلى إنجاز كتابة طويلة قد تكون وحدها تشكل كتاباً قائماً بذاته. ولأن هذه الكتابة لا تطمح إلى أن تكون أكثر من مقالة، فإنني سأتوقف أمام أربعة نماذج وأفكار فقط، وهي:

- نموذج جين وابنتها أولغا.
- نموذج ايلين.
- فكرة ذبح جوزيف.
- نموذج البير.

ولسوف ألجأ، باستمرار، إلى مقارنة هذه النماذج بنماذج مشابهة، أو بكتابات مشابهة، وردت في الكتابات العربية. طبعاً علينا ألا ننسى أن كاتب سيناريو المسلسل كان، في بداية كل حلقة، يشير إلى المصادر التي اعتمد عليها في كتابة المسلسل، ويركز على أنها مصادر يهودية وصهيونية، وأنه استبعد كتاب " بروتوكولات حكماء صهيون "، لأنه – كما أعتقد –

كتاب مشكوك فيه وفي من يقف وراءه. وتركيز كاتب المسلسل على هذا إنما يراد من ورائه أن هذه الأفكار وهذه النماذج الحاضرة في المسلسل ليست من نتاج العقل العربي لتشويه الآخر الصهيوني، إنها من نتاج الحركة الصهيونية. وهكذا نصل إلى نتيجة، ونحن نقرأ الكتابات العربية التي تبرز نماذج مشابهة، هي أن ما يكتبه العرب يعتمد على وثائق وكتب وروايات غير عربية. وكنت، شخصياً، قد أنجزت دراسة مطولة حول نصوصنا الأدبية وصلتها بالنصوص الأدبية العبرية والصهيونية، نشرتها في كتابي " الأديب الفلسطيني والأدب الصهيوني " سنة ١٩٩٣ "، وفي دراستي " الذات والآخر في رواية غسان كنفاني " عائد إلى حيفا على ضوء صورتهما في رواية (ليون أوريس) " أكسودس (جامعة فيلادلفيا، ٢٠٠٣).

أولاً: نموذج جين وابنتها أولغا:

تظهر (جين) في بداية المسلسل، وتكون بائعة هوى، ومن خلال عملها هذا تعيش وتجمع ثروة، ولكنها تحب (ثيودور هرتزل)، وهي على استعداد تام لأن تعيش معه وتخلص له وتمنحه كل ما يريد. ولكنه هو يريد أن يستغلها لترويج آرائه وأفكاره التي يريد أن يحققها، ومع أنها تنفذ له الكثير مما يطلبه منها، إلا أنها تبدو غالباً غير راضية من إغراقه في السياسة لدرجة كبيرة. والطريف في الأمر أن (جين) هذه التي تتزوج من (حاييم هاليفي) لا تمانع من توظيف ابنتها (أولغا) لخدمة أهداف زوجها (حاييم)، وهذا أيضاً لا يعترض على توظيف (جين) وابنتها (أولغا) جسديهما لخدمة أهداف الحركة الصهونية. هنا يبرز المسلسل الفكرة الشائعة عن اليهود، وهي أنهم يوظفون نساءهم لتحقيق أغراضهم، ولا يرون في ذلك منقصة. وكان الدارسون العرب قد أتوا على هذه الفكرة، وأبرزهم محمد عزة دروزة في كتابه " تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم "، تماماً كما أبرزها الروائيون العرب والفلسطينيون في نصوصهم الروائية. (برهان الدين العبوشي في وطن الشـــهيد، وممدوح عدوان في أعدائي، على ســـبيل المثال فقط). وإذا كانت (جين) توافق على هذا، بل إنها، في الأســـاس، بائعة هوى، فإن (أولغا) ابنتها ترفض هذا وتعمل على الانتقام ممن استغلها، وترى في سلوك الذين دفعوها إلى البغاء سلوكاً غير شريف يستحق العقاب، ولذلك تسجل أسماء هؤلاء حتى تعاقبهم، وتحاول التخلص منهم واحداً واحداً. هذا النموذج الرافض أيضاً لأن يكون أداة بيد الحركة الصهيونية، عن وعي أو عن غير وعي، برز بكثرة في النصوص الروائية العربية، من ذلك مثلاً، روايتا ناصر الدين النشاشيبي " حفنة رمال "و " حبات البرتقال ". سارة في الأولى يهودية الأم، عربية الأب، تحاول الصهيونية دفعها للإيقاع بالعربي ثابت حتى يبيع أرضه، فترفض وتعاقبها الحركة الصهيونية، ومريم في الثانية يهودية ألمانية تحب

العربي الفلسطيني سابا، وحين تعرف الوكالة اليهودية في ألمانيا تعمل على إبعادها عنه. وهذا يحيلنا إلى النموذج الثاني، نموذج إيلين. طبعاً علينا ألا ننسى أن (أولغا) أحبت رجلاً مسيحياً رومانياً، ولم يكن هذا لمصلحة، بل من أجل الحب فقط.

ثانياً: نموذج ايلين

ايلين هي مسيحية رومانية تعيش مع ولدها (جوزيف) وتكون علاقتها جيدة باليهودي (ألبير)، ويقدم لها هذا خدمات إنسانية عديدة، وتعقد بينهما صداقة جيدة، بل إن زوجة (ألبير) مريم التي تصاب بالسرطان، تبارك هذه العلاقة، ولعلها تمهد لأن تكون (ايلين) زوجة (ألبير) بعد وفاتها.

حقاً إن (ايلين) هنا مسيحية، ولكنها لا تختلف عن سارة اليهودية ومريم اليهودية أيضاً في روايتي النشاشيبي. ثمة حب من طرف المرأة لآخر من غير دينها، ولا هدف من وراء هذا الحب إلا الحب الإنساني،

ومع أن الظروف تفرق بين (ايلين) و (ألبير)، إذ يجبر هذا على الهجرة إلى فلسطين / أرض الميعاد، إلا أن (ايلين) تتبعه وتسير على خطاه، وتعمل على اللحاق به من أجل أن تتزوج منه، وإن دخل الشك إلى قلبها، لأنها عرفت أن ابنه (ناتان) وصديقه (توم) قد ذبحا ابنها جوزيف. هنا تتساءل (ايلين) إن كان (ألبير) شريكاً، مع أنه لم يكن كذلك.

نموذج المسيحية التي تحب اليهودي نموذج أبرزته الرواية الصهيونية لا الرواية العربية، وقد توقف أمامه غسان كنفاني في كتابه " في الأدب الصهيوني "، وأتى على ذكر روايات عديدة تقوم فيها علاقة بين مسيحية أوروبية ويهودي، لكن اليهودي في هذه الروايات يكون صهيونياً بالدرجة الأولى، وهذا ما لم يكن عليه (ألبير) الذي كان ضد الحركة الصهيونية، ولم يكن يبارك أعمالها، بل إنه ضد ما تقوم به.

ثالثاً: فكرة ذبح جوزيف:

ما من شك في أن ذبح الطفل المسيحي (جوزيف) ابن ايلين منظر مرعب يثير القشعريرة، وهو منظر حدا بالولايات المتحدة وإسرائيل إلى تصعيد حملتهما على عرض المسلسل، لأنه يذكي نار الحقد، ولا يشجع على التعايش. وما من شك أيضاً في أنه أثار القشعريرة أيضاً لدى كثير من الفلسطينيين، وأنا منهم، على الرغم مما نتعرض له من قتل منذ ثلاث سنوات ونيف.

وفكرة ذبح واحد من الأغيار من طرف اليهود لعجن طحينهم بدمه، للاحتفال بعيد الفصح، فكرة شائعة في بلاد الشام، وربما في مصر أيضاً. وغالباً ما كنا نصغي، ونحن صغار، إلى أهلنا يحذروننا من عصابة الكف الأسود التي تذبح الأطفال لتأخذ دمهم إلى اليهود. ولا أدري إن كان هذا صحيحاً أم لا. ولا يهمني هذا هنا، فما يهمني هو جذور القصة.

يذبح (ناتان) و (توم)، بمباركة من الحاخام (ديفيد)، يذبحان (جوزيف) بدم بارد، ويسيل دمه ويعجن به طحين اليهود.

ويقـــدم الحاخام لألبيـــر فطير عيد الفصح، ويخبره بأنه معجـــــون بدم مســـيحي، بدم (جوزيف). ويشمئز (ألبير) اليهودي من هذه الفعلة الشنيعة.

وقد توقف الدكتور محمد باكير علوان المحاضر في جامعة (جورج تاون)، في العام ١٩٧٨، أمام هذه الفكرة، ونشرها في دراسته التي نشرها في مجلة العربية تحت عنوان " اليهود في الأدب العربي بين ١٨٣٠-١٩١٤ ".

أشار د. علوان إلى أن الكراسة الأولى التي ظهرت فيها شائعة ذبح طفل مسيحي وعجن طحين اليهود بدمه، نشرت في نهاية القرن التاسع عشر، وأشار إلى أن ما ساعد على ظهورها في العالم العربي شعور بعض العرب، بخاصة بعض المسيحيين العرب، بأن اليهود بدأوا يشاركون بفعالية في المجتمع العربي، وقد ضايقهم هذا. وكان عنوان الكراسة " الصحيفة الوضية اللمعية في انهدام الديانة العبرانية "، ولم يكن اسم كاتبها عليها. وأثارت الكراسة غضب حاكم سوريا، فأمر، بدوره، بمصادرة النسخ المتبقية منها.

وفوق هذا فقد نشرت مجلة " الجنان " البيروتية تفنيداً لما ورد في الكراسة، وأشارت إلى أن الفكرة هذه، فكرة عجن طحين اليهود بدم مسيحي مصوغة بصورة متماسكة في أوروبا. وأضافت: يبدو أن الكراس مترجم عن واحدة من اللغات الأوروبية، ومن المحتمل أن تكون الفرنسية، إذ ليس لهذه الفكرة جذور ذات دلالة في الآداب العربية والإسلامية.

وأضاف علوان: في العام ١٨٩٠ ظهر في القاهرة كراس آخر تحت عنوان " صراخ الباري في بوق الحرية " تحت اسم حبيب فارس، وهو كراس مترجم جزئياً عن الفرنسية. وبعد ثلاث سنوات ظهرت ترجمة تحت عنوان " في الزوايا خبايا أو كشف أسرار اليهود " لـــ (جورج كورنايلان)، وفيه يأتي على الحكاية.

وفي حدود إطلاعي على كثير من الأدبيات العربية التي أتى فيها أصحابها على تصوير نماذج يهودية، لم أقرأ ما يستحق الذكر حول هذه الفكرة، وأظن أن كثيراً من الدارسين والكتاب يعتقدون أنها إشاعات، والله أعلم.

رابعاً: ألبير:

ألبير هذا هو ابن (جين) و (حاييم هاليفي) وهو رجل مسالم يرفض المؤامرات، بل إنه يقشعر لمنظر الدم. إنه يرفض الهجرة إلى فلسطين، ولهذا تضيّق عليه الحركة الصهيونية، في المنفى، سبل العيش، فيطرد من عمله، وكلما وجد عملاً فصل منه، لا لانعدام كفاءته، وإنما رغبة من الوكالة اليهودية في أن يهاجر إلى فلسطين، وهكذا يجد نفسه على ظهر الباخرة، مع أولاده الثلاثة وابنته سارة التي يغتصبها (أدولف) اليهودي لتغدو زوجته، على الرغم من كراهيتها له.

ويفقد (ألبير) أولاده الثلاثة، ينضم (ناتان) إلى الحركة الصهيونية، منذ وقت مبكر، ويغدو إرهابياً بامتياز، منذ ذبح (جوزيف)، يقتل عرباً ويهوداً يخالفون ما تدعو إليه الصهيونية، ومسيحيين. إنه يقتل مدفوعاً بفكرة الصهيوني، لعله يصبح ذا مكانة، يوجهه (توم) ابن (أولغا) و (أدولف) زوج أخته ســـــارة، ويلحق (ناتان) و (توم) و (أدولف) الابن الأوســـط لـــ (ألبير) بالحركة الصهيونية، ليفجر باخرة تقل يهودا مهاجرين هجرة عكســـــية، هجرة إلى غير أرض الميعاد، حتى يكون هؤلاء عبرة لكل يهودي لا يهاجر إلى فلســـــطين. أما الابن الأصغر لـــ (ألبير) فتختطفه (نانسي) لتلحقه بحاخام يهودي يعلمه، منذ طفولته، الديانة اليهودية. و (نانسي) هذه كانت، في المنفى، عاهرة، تقدم خدماتها للقائمين على إنشاء دولة إسرائيل. وهي، مثل (أدولف) و (ناتان) و (توم)، تخلو من الشفقة والرحمة والمشاعر الإنسانية. إن فكرة إنشاء الدولة فوق كل اعتبار.

(ألبير) مثل بطل رواية الكاتب التركي الساخر (عزيز نيسين) إبراهيم شاهزادة، هذا الذي كلما أراد أن ينقذ نفسه من ورطة، يقع في ورطة أخرى. و (ألبير) يذكر قارئ نصوص الأدب الفلســـطيني برواية الأديب محمود شـــــاهين " الهجرة إلى الجحيم "، وببطلها (اركاديوش) اليهودي البولوني المضلل من الصهيونية. لكأن (ألبير) هو كاتب المخطوط الذي اطلع عليه شاهين، وكتب اعتمادا عليه روايته.

لقد ذكر شاهين أنه قرأ مخطوطاً لرواية كتبها أحد المهاجرين اليهود الذين هربوا من فلسطين، يصف فيه الحياة في إسرائيل الدولة القائمة على بحر من الدم. [في رواية شاهين أيضاً هناك فتاة مسيحية تحب اليهودي الفلسطيني أبراهام].

لا يريد (ألبير) الهجرة إلى فلسطين، ويريد أن يبقى في المنفى، غير أن الضغوطات تزداد عليه فيهاجر، ويذوق الأمرين. في المعســـــكر، معســـــكر تجميع القادمين الجدد، يكتشف أن أرض الميعاد ليست أرض السمن والعسل، وأنها أرض البؤس والشقاء، ويســـــمع عن قتل العرب، ويلتقي أيضاً باليهودي (ايغال) الذي ضلل وخدع، ويرغب في أن يعود مـــن

حيث أتى، وتكون نهايته، لتفكيره هذا، الموت أمام عيني (ألبير) الذي لا يقتل بسبب تدخل (توم). هذا هو مصيرك، يقول له (توم)، إن حاولت ثانية الهجرة من أرض الميعاد. ويشـــعر (ألبير) بتأنيب الضمير، فهو الذي أفشى لـــ (نانسي) بسر (إيغال)، ويشعر بالأســـــى أيضاً لأنه كان سبب قتل العربي الذي عمل عنده، حيث لاحقه ابنه (ناتان) وقتل التاجر العربي وابنه وعماله معاً.

و (ألبير) هو نموذج اليهودي غير المندمج في دولة إسرائيل، لا اليهودي غير المندمج في المنفى، في أوروبا أو في العالم العربي. إنه الذي يحلم بالزنابق البيضاء، كما كتب عنه محمود درويش في إحدى قصائده، وهو مثل المحامية (فيلتســيا لانغر) التي هاجرت من إسرائيل لإيمانها باستحالة الحياة فيها، وهو أيضاً مثل (شاي كاسيرر) الذي كتب مقالاً تحت عنوان " حتى الحلم أصبح ممنوعاً في إسرائيل: لهذا قررت الرحيل الأبدي "، المقال الذي نشرته الأيام في ٢٠٠٣/١١/١٧.

هذه نماذج وأفكار بدت في مسلسل الشتات "، وهي نماذج وأفكار، كما لاحظنا، ليست جديدة كل الجدة. والسؤال هو: لماذا إذن، الاعتراض على عرض المسلسل؟ وقد تكون الإجابة وردت في بداية هذا المقال.

د. عادل الأسطة
الجمعة ٢٠٠٣/١١/٢٨